obeikan.com

obeikandl.com

حافرة الدراسة

إن النص الحداثي تكون في رحم خاص ، وحفته مخصبات رياحية تمتلئ بالثورة والرفض والتمرد ، وتغذى من حبل سري تمخض في دائرة الحلم ليخرج من علق الدم وليدا يعشق غربة الذات وتجربة التكوين ، وينفتح على عالم نافذته تطل على أفق أرحب .

فقد تنوعت أشكال القصيد ، وتراجعت الصورة البلاغية أمام الصورة التشكيلية ، وتعددت الأصوات في القصيد الواحد وانفتح البناء الفني علي أساليب المعمار الحديث ، وقلت الزخرفة والمحسنات البديعية وحل محلها وحدات معمارية تربط بين الفروع والأغصان .

ولم يعد الشعر ذلك النمط اللغوي الذي ألفته نفوسنا وعيوننا ، بل تعدى ذلك ، وأصبحنا نجد صورة بصرية تشارك النمط اللغوي دلالته ، وتشكلات كتابية تخلق من البياض نصاً ومن السواد ظلالاً إيحائية أخرى .

إن الشاعر الحداثي هو شاعر المفاجأة والرفض ، الشاعر الذي تبحث عينه عن غرابة الصورة ، وطرافة التشكيل ، الشاعر الذي يهدم الحدود التقليدية بحيث لا يبقى أمامه غير حركة الإبداع وتفجرها في جميع الاتجاهات ، ووسائل التفجير لديه تتمثل في لغة النص ، تلك اللغة التجاوزية التي يتجاوز بها حد المقنع والثابت ، وينطلق مبدعا للغة تشكل نصا مغايرا .

فقد شهدت الساحة الأدبية في الآونة الأخيرة ظهور أنماط مختلفة للنص تنسب للشعرية العربية ، هذه الأنماط كانت سببا في تغيير وجهة التلقي ، فقد تغيرت وظيفة التلقي للنصوص ، وكذلك الأدوات المعيارية التي تقاس بها درجة الشعرية في ظل التغاير الذي أحدثه النص الحداثي في قيمة الكلمة ، أو اللفظة التي تستخدم في البناء النصي .

فالكلمة قديما كان لها " صفة المعنى بقدر ما كان لها طابع الإشارة الإيقاعية التي تتحقق بواسطة الصوت (الصرخة) وهي بذلك لم تكن أكثر من مادة ترتديها الحركة والإيقاع "[1].

فالكلمة /الصرخة في القديم سقطت من فوق عرشها لتفسح المكان للكلمة /الإيحاء ، تلك التي تكتنز بطاقات إشعاعية نابضة سواء أكانت مفردة أم سياقية ، وهذه الكلمة تتعالق مع فضاءي النص : اللغوي والبصري ، لتنتج لنا علاقة مركبة تقوم على الاختيار والاختلاف .

من هذه التوطئة تنطلق فكرة البحث الموسوم بـ (**بئار النص – قراءات تفكيكية في الشعر الحداثي**) .

والدراسة ركزت على نوعين من النصوص ، النص التفعيلي ونص قصيدة النثر ، وركزت في الجانب الأكبر منها على النوع الثاني وهو قصيدة النثر ، لأن هذا النص لاقى هجوما عنيفا من النقاد وكان أغلبه يتجه نحو الحركة الحداثية الجديدة دون النظر إلي النص والبحث في بئاره للوقوف على ما وصل إليه من تطور على مستوى اللغة والتشكيل والبلاغة .

وليس معني هذا أننا من المناصرين لتلك الحركة ولقصيدة النثر ، ولكن نظرتنا في هذه الدراسة – ستتجه إلى النص ، وسيميل اختيارنا إلي أفضل

---

(١) غيور غي غاتشف : الوعي والفن / ترجمة : نوفل نيوف / سلسلة عالم المعرفة / ع١٤٦/الكويت / ص ٦٩

النصوص – من وجهة نظرنا – تلك التي تكشف عن رؤية إبداعية جديدة، وتقدم طرحا مغايرا لم يسبق .

والنظرة المنصفة لتلك النصوص تؤكد امتلاء فضاءاتها بمؤثرات جديدة تمنحها شعريتها فالواقع " أن قصيدة النثر االعربية قد ولدت في ظل سياق فكري وتاريخي متوتر ، وفي ظل مؤثرات محلية وعالمية ، وتقوم شعريتها علي التكثيف الشديد للفكرة وعلى الرمز والإيحاء والإيقاع الكيفي لا الكمي ، وعلى الموسيقى التي تتولد من أسلوب توظيفها اللغة "[١].

وتعتمد بعض نصوصها على خاصية الغرابة والمفارقة والإدهاش ، وبعض شعرائها موهوبون ، وهم لا يهربون من الوزن والقافية بوصفهما قيدا يتطلب معرفة وثقافة ودراية ، لكنهم يهربون من التقليد ، ويختارون كتابة القصيدة في فضاء رحب ، خال من القواعد التي تفرضها الذاكرة والمحاكاة والمسايرة ، وشعرهم ليس بديلا عن القصيدة العمودية ولا بديلا عن قصيدة التفعيلة ، وإنما هو مستوى آخر يضاف إليهما "[٢].

أما عن مكانية النصوص ، فقد نوعت الدراسة بين اختيارها للنماذج المصرية والعربية في محاولة لدراسة الخصائص المشتركة للنص الحداثي ، وقد احتل النصان المصري والسعودي مساحة شاسعة على مستوى الاستشهاد أو القراءة التحليلية ، وسبب ذلك يعود إلى أهمية النص المصري ، ومدى ما حققه من تشكلات تميزت بالجدة والغرابة ، والفترة التي خصصت للدراسة شهدت تباينا واضحا في التجربة المصرية الحداثية ، فقد ضمت جيل السبعينات الذي أحدث ثورة تجديدية على مستوى النص جعلت كثيرا من النقاد يلتفتون إليه ، وتكونت جماعة

---

(١) نذير العظمة : مدخل إلى الشعر العربي الحديث / النادي الأدبي بجدة / ١٩٨٨ /١٠٤

(٢) عبد العزيز المقالح : دراسات في الشعر العربي المعاصر/ ٥٣٣ ، وعبد الله المعيقل : موسوعة الأدب العربي السعودي / مج٢ / دار المفردات / الرياض / ٢٠٠١ / ٨٦

إضاءة(٧٧) التي حاولت الخروج من عباءة جيل الرواد لتكوين نص جديد يحتفي بالتشكيلات اللغوية المغايرة ، ويقدم قيما جمالية تبتعد عن التقليدية، وجاء جيل الثمانينات والتسعينات ؛ ليهدم ما بناه جيل الرواد ، ويبدأ في كتابة نص مكتنز بطاقات إبداعية يجسد الواقع بصورة ذاتية ، وظهرت قصيدة النثر بشكل لافت ومؤثر ، وظهر معها حركة نقدية تمثل أقلاما تناصر وتعادي ، كان لهذه الحركة دور كبير في إثراء المشهد النقدي المعاصر .

أما عن النص السعودي ؛ فقد " وصلت القصيدة السعودية في مرحلة التحديث إلى مستوى متطور في التجريب والرؤية واللغة ، وهو إنجاز أصبحت القصيدة معه وثيقة الصلة بالحياة والناس والأشياء ، وبدلا من الموضوعات المألوفة ، صار الشعر يعبر عن رؤية ، وعن موقف من قضايا الإنسان المشتركة ومن قضية المبدع والفرد الخاصة في هذا الكون، مما جعل التجربة الشعرية أكثر انفتاحا على العصر وأكثر احتفاء بأسئلته المصيرية الكبرى ، وحدث تجديد في طريقة صياغة القصيدة وبنائها بالإضافة إلى الأسلوب الغنائي ، ظهرت البنية السردية ، والبنية الدرامية متعددة الأصوات التي توظف الحوار والسرد ، إلي جانب القصيدة القصيرة المكثفة ، ووظف رموز فولكورية وأخرى مرتبطة بالبيئة المحلية ، وأظهر الشعراء عناية واضحة في انتقاء معجمهم الشعري ، وفي توظيف مفردات مشتملة من لغة الحياة اليومية للاستفادة مما تحمله من علاقة حميمة بالواقع .

" وخرجت القصيدة في بعض نماذج التفعيلة وفي قصيدة النثر من دائرة الإبداع الشفاهي إلي دائرة الإبداع الكتابي حيث أصبح التحويل في التأثير على الكلمة المقروءة في صمت لا المسموعة ، وعند ذلك أصبح

لشكل الكتابة وكيفية توزيع الكلام على الصفحة ، واستخدام العلامات الكتابية دور مهم في تشكيل القول الشعري ومن ثم المعني "[1] .

دواعي اختيار الموضوع:

والباعث الذي حدا بي لاختيار هذا الموضوع يرجع إلى عدة أسباب :

أولها : المساحة النقدية الضيقة لقراءة النص الحداثي ، فحركة الحداثة وما بعدها واجهت هجوما عنيفا وثورة عارمة من كثير من نقاد هذا العصر ، وأصبح المناصرون للنص الحداثي قليلين ، وأضحت كتابتهم يحوطها بعض من الترقب والحذر الشديدين مما قلل من الأبحاث النقدية التي تقرأ النص الحداثي بالرغم من كثرة ما كتب عن الحداثة وما بعد الحداثة والمصطلحات النقدية الحديثة ، ولكن النص الحداثي لم يأخذ حقه من الدرس النقدي قراءة و تحليلا وتأويلا ، ولذلك رأى الباحث أن يسهم بجهده ليلقي بؤرة ضوء على مجموعة من شعراء تلك الحركة

ثانيها : ما يستحقه شعراء الربع الأخير من دراسة نقدية للغة النص الشعري تكشف عن تفجيراته ومكوناته الدلالية .

ثالثها : نوعية القراءة فهي قراءة تتبع منهجا تفكيكيا يهدف إلى إعادة بناء النص الشعري ، فالتفكيكية منهج حديث في ضوء نظرة حديثة .

منهج البحث

لقد شغلت عملية القراءة للنص الأدبي الكثير من النقاد ، مما جعلهم يضعون النص تحت المجهر محاولة منهم لفك شفراته ، وكان الاتجاه قديما يربط بين النص ومؤلفه ، أو النص والبيئة الاجتماعية في نوع من

---

(١) عز الدين إسماعيل : دراسات في الشعر العربي المعاصر / دار الكاتب العربي / القاهرة / ١٩٦٧/ ٤٨٠

خلق شراكة بين المرسِل والمرسَل إليه ومكان البث ، فنشأ النقد التاريخي، الذي ثبت إخفاقه على مر العصور واختلاف الأجناس الأدبية ، وبدأت الأنظار تتجه إلى النص الأدبي بوصفه وحدة متكاملة بعيدا عن المؤلف أو البيئة أو الواقع المعيش ، فظهرت البنيوية التي تبنت نظرية (موت المؤلف)، وخرجت بعدها المناهج الحداثية ، التي تختص بقراءة النص مركزة على لغته ، وتشكلاته الفنية.

وفي نوع من التعمق داخل النص ظهرت اتجاهات ما بعد الحداثة ، التي احتفلت بأنموذج التشظي والتشتيت كمقابل لشموليات الحداثة وثوابتها، وزعزعت الثقة بالأنموذج الكوني ، وحاربت العقل والعقلانية ، ودعت إلى خلق أساطير جديدة تتناسب مع مفاهيمها التي ترفض النماذج المتعالية ، وتضع محلها الضرورات الروحية ، وضرورة التغيير المستمر، وتبجيل اللحظة الحاضرة ، ومن ضمن تلك المناهج كان منهج بحثنا التفكيكية (deconstruction) .

التي تعني – كما ترى باربرا جونسون – " تمزيق دقيق لقوى الدلالة المتصارعة في النص "[1] ، والنص عند أصحاب المدرسة التقويضية يتمتع بتعددية المعنى ، التي تكون غير قابلة للاختصار أو الاختزال ، ولا يجنح إلى التعايش بين المعاني ، ولكن يحاول تفعيلها وتحويلها وتداخلها ؛ ولهذا لا يستجيب النص إلى التفسير ، وإنما ينحو نحو التفجير ، ثم يندرج ذلك النص تحت البعد التناصي على اعتبار تفاعله مع سابقه ، ومعاصره من نصوص .

" والنص في تصور (دريدا) آلة تنتج سلسلة من الإحالات اللامتناهية، فهذا النص باعتبار ماهيته المتعالية يشكو أو ينتشي من غياب

---

(١) ديفيد بشبندر : نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر / ت:عبد المقصود عبد الكريم / الهيئة المصرية العامة للكتاب / مكتبة الأسرة /٢٠٠٥/ ٧٥

ذات الكتابة ، ومن غياب الشيء المحال عليه أو المرجع .. إن غاية دريدا هي تأسيس ممارسة (فلسفية أكثر منها نقدية) تتحدى تلك النصوص التي تبدو وكأنها مرتبطة بمدلول محدد ونهائي وصريح ، إنه لا يريد تحدي معنى النص فحسب ، بل يطمح إلى تحدي ميتافيزيقا الحضور الوثيقة الصلة بمفهوم التأويل القائم على وجود مدلول نهائي ، إن ما يسعى إلى البرهنة عليه هو السلطة التي تمتلكها اللغة المتجلية في قدرتها على أن تقول أكثر مما تدل عليه ألفاظها مباشرة"[1] .

وهذا يؤثر بضرورته في إنتاجية التلقي ، ويخلق ما يسمى بالقارئ الشاعر الذي يتدخل في إبداع النص من خلال قراءته المبدعة ، في ظل عدم التقيد بالقصدية الغائبة التي كانت تلتف حولها المناهج التي سبقت التفكيكية ، فالنص – وفق الطرح التفكيكي – لا يحتوي على مدلول متفرد ومطلق ، ولا وجود للمدلول الأوحد الذي لا يقبل الإضافة أو التغيير ، إنما الغاية التي يسعى إليها التفكيك هي البحث عن اللامتناهي ، وخلق قراءة إبداعية إنتاجية للنص المعلن .

وقد تحقق في المنهج التفكيكي – من وجهة نظر الباحث – ما أشار إليه الأستاذ الدكتور : سيد البحراوي في عرضه للأسس التي يجب توافرها في المنهج النقدي عندما ذكر " إن بعض النقاد والدارسين يتصورون أن المنهج النقدي ليس إلا الطريقة التي يتم بها التعامل مع النص أو العمل الفني فهو لديهم أداة كأداة الحرفي في الورشة ، وهذا – طبعا – مفهوم دقيق ، فالأدوات الإجرائية ليست إلا عنصرا من عناصر المنهج ، لابد أن تستند إلى مجموعة متكاملة ومنسجمة من الأسس والمفاهيم النظرية المتعلقة بطبيعة الموضوع المدروس ووظيفته ، ولابد أن تتوافق الأدوات

---

(١) أمبرتو إيكو : التأويل بين السيميائيات والتفكيكية / ت : سعيد بنكراد / المركز الثقافي العربي / الدار البيضاء / ط١ / ٢٠٠٠/٧٤

المنهجيـة مـع الأسـس النظريـة ، ولا تتنـافر معهـا ولا مـع الموضـوع المدروس ، ومثل هذا التكوين المنهجي ينبغي أن ينطلق من الاحتياجات الفعلية للمجتمع الذي يعيش فيه الناقد"[١]

من هنا انطلق الباحث في قراءته للنصوص وفق المنهج التفكيكي ، وخضع اختياره للنصوص لخاصية الاصطفاء ، التي تعتمد على الجودة، وتوافق النص مع مادة البحث.

***

(١) د. سيد البحراوي : قضايا النقد والإبداع العربي / كتابات نقدية /الهيئة العامة لقصور الثقافة / ٢٠٠٢/ ٢٧

obeikandl.com